وصية الرمق الأخير

بقلم: محمد علي وهبة
مصر

انفجار جبار يرعد في بيتهم، عند سماعهم لصراخ أمهم يتردد بين الجدران، ينسف هدوء الزوايا والأركان، يكاد يخلع قلوبهم من صدورهم، وينزع الدمع من عيونهم.

- الحقوا أباكم يا أولاد!

يتواصل صراخها في المسافات بينها وبينهم، يغوص بعيداً في قلوب جيرانهم المحيطين بهم. يتردد بقوة في أحشاء هواء الجو ووهج سطوع الشمس، ونبض خلاء الفضاء.

يندفعون نحو حجرة نومه مسرعين، مع الكثيرين من جيرانهم القريبين. يتوقفون مذهولين أمام كوب ماء مهشم على الأرض، يرشح ماؤه في أغطية الفراش، الذي يتمدد عليه.

- ماذا حدث يا أمي؟!

طلب مني كوب ماء!

وأضافت بلهجة لاهثة، ووجهها ينكمش ويرتعش:

- جئته به.. وجدته هكذا!

وأشارت إليه، وهو راقد بلا حركة أو أنفاس. تبتلعه أغطية الفراش. لا يظهر منه سوى وجهه المضعضع، المحفور بالتجاعيد، كوجه تمثال من حجر.

يتزاحمون حوله. يتأملون جمود ملامح وجهه، يقفز ابنه الأكبر الذي يعمل طبيباً إلى جواره. يمسك بإحدى يديه، يتحسس شرايين رسغه بأطراف أصابعه، وملامح وجهه مشحونة بعواصف حزن أليم. يراقبونه بأنفاس مقبوضة ونبض محقون، ثم يبتسمون عندما يرون بسمته ترتسم وتتسع على شفتيه وهو يقول:

- مازال به نبض!

ثم قال:

-مجرد هبوط بسيط في قلبه!

قالت أمهم، وهي تحاول بعث الأمل في قلوبهم:

- سينهض بحول الله.

ثم قالت:

- رأيته منذ قليل يتيمم ويصلي وهو جالس على فراشه.

مال ابنه الأكبر فوقه. انشغل بتدليك قلبه بكلتا يديه لأعلى ولأسفل، ولليمين واليسار، برفق ولين، وهو يشعر بليونة جلد جسمه الهزيل. استمر في تدليكه، حتى أخذت عيناه تنغلقان وتنفتحان وترتشعان، وقد بدأت ترشح على جبهته قطرات من عرق وهو يقول بأنفاس متوترة:

- أين الأولاد؟!

لم يتمالكوا إحساسهم بالفرح، وهم يقولون:

- نحن هنا يا أبي.

ظل نبض قلوبهم يرتعش، مع ارتعاشة عيونهم بالدمع، وهم ينظرون إليه مبتهجين. بقي صامتاً، ونظراته شاخصة في سقف الغرفة. يتأمل شريطاً طويلاً مليئاً بذكريات ماضي حياته، يظهر على شاشة ذهنه.

انفجارات قاصفة، عاصفة بهدير الفزع تزلزل أركان بلدته الآمنة، تسحق بسمات الشفاه. وحرائق مذعورة مسعورة تأكل الحياة. وأبنية كثيرة تتهدم فوق رؤوس أهله وجيرانه الآمنين، وسحائب دخان وغبار تملأ خلاء الفضاء. وألسنة لهب سحيقة تحرق أنفاس الهواء، وانفجارات قنابل، يطلقها غرباء قادمون من أماكن بعيدة لابتلاع روح المكان وأنفاس الزمان.

يحاول مع الكثيرين من أهله أن يفعلوا شيئاً لصدهم. لكنهم يضطرون للرجوع، مع سقوط الكثيرين منهم، سابحين في دمائهم، والصريخ المفزوع لنسائهم وأطفالهم، مع هدير أصوات الانفجارات والانهيارات من حولهم يصم آذانهم.

رأى نفسه بعد ذلك، مع الكثيرين من أهله سائرين في فضاء الوجود، للبحث عن مكان آمن بعيد، ورياح الشتات تعوي فوق رؤوسهم، تقتلع أقدامهم من أوردة وشرايين أرضهم، تمنع نظرات عيونهم من رؤية أشجار برتقالهم وزيتونهم، تطيح بهم بعيداً في حلوق مسافات الرياح، وسيالات نزف الدم المستباح.

- تمنيت موتي شهيداً.

قالها بصوت مرتعش ومقبوض.

- أبقاك الله يا أبي.

قالها ابنه الأكبر، وهو يحاول أن يرسم بسمة كبيرة على شفتيه. رددها من بعده الآخرون بأصوات متداخلة متفائلة.

اختلط حزنهم ببسمات شفاههم، وهم ينظرون لبسمته، وهو يستجمع بقايا قوته، ويتهيأ ليملي عليهم وصيته قبل رحلته، التي يشعر باقترابها، لتأخذه، ربما بلا رجوع.

زاد اتساع بسمته، وهو ينظر لجمعهم مع جيرانهم المتزايدين حولهم، وهم يأخذون شكل عائلة كبيرة، واحدة متوحدة. وزاد إحساسه بالسرور، وهو يشعر بمغاليق العالم الخفي تتفتح من حوله بخوارق روح الاجتماع.

أمده الله بنفحة من القوة، وهو يمد يده إلى منضدة صغيرة بجانب سرير نومه، فوقها لفافة من الورق، أمسك بها. أطبق عليها أصابعه العشرة. ضمها إلى صدره، ونظراته التي استعادت بريقها قليلاً تنتقل بين وجوههم من الأكبر إلى الأصغر، حتى استراحت بقايا أنوارها على وجه أصغرهم، الذي كانت نظراته براقة لامعة، مليئة بأطياف روح الغد الآتي بأفراح الرجوع.

- أراح الله قلبي!

وقال وهو يرفع نظراته:

- الحمد لله.

قالها وهو يتنفس بارتياح، بعد أن قام بتسليم لفافة الورق لأكبرهم، ثم قال، وهو يحتضنهم بنظراته:

- إنها وثائق أرضنا وديارنا!

وأطبق شفتيه فوق بعضهما، وهو يحاول ترتيب كلمات الوصية في رأسه. ظل مستغرقاً في تفكير عميق، وهو يتهيأ ليقول لهم:

- ليبق إيمانكم نبراسكم.

أراد أن يخبرهم بعد ذلك بالطريقة، التي يعيدون بها أرضهم وديارهم بأنوار عقولهم وأرواحهم. تمنى أن يضيف إلى ذلك قوله:

- ليكن طلب العلم طريقكم.

ثم يقول:

- طالب العلم تدعو له الملائكة.

تمنى أن يقول لهم بعد ذلك:

- انقلوا وصيتي لأبنائكم من بعدكم. لكنه ظل صامتاً، وهو يلملم صوته ونبض قلبه، والمسافة بينه وبينهم تتراعش مع ارتعاش النبض في عروقه، فحاول استجماع ما تبقى له من قدرة على النطق. وتصور أن باستطاعته إملاء وصيته عليهم، بالترتيب نفسه الذي وضعه في رأسه، فبدأ صوته يخرج من فمه مرتعشاً مهزوزاً، وهو يقول:

- إنكم يجب أن.....

ولم يستطع إكمال عبارته، وهو يشعر بيد خفية قوية تقبض بنعومة متجبرة على آخر ما تبقى له من أنفاس، انتفض معها كيانه بأكمله، وحماليق عينيه تنطفئ بعتمة الغيوم، فأطلق زفيراً سحيقاً، لم يستطع أن يأخذ بعده شهيقاً. ومال رأسه بكل ثقله فوق صدره، وهو يسلم روحه إلى بارئها في هدوء عميق سحيق، فظلوا يتأملونه بصمت عاصف بالذهول، وهم يشعرون بسطوع الدموع في عيونهم، مع سطوع أنوار سماوية رحيمة تتردد في الخفاء، وسطوع أطياف الضياء من حولهم تتمدد إلى منتهى آفاق الأرض والسماء. ■